هل المسيحية في ازدهار ؟

الاستاذ عبد الكبير الفاسي

هذا سؤال إذا اكتفينا في الجواب عنه بقبول مايرد علينا في الإحصائيات على علاته ، أجبنا عنه بالإيجاب ، لأن الإحصائيات تزعم أن عدد المسيحيين في ازدياد . على أنها تعتبر سكان أوربا كلهم مسيحيين كما تعتبر سكان أمريكا — جنوبا وشمالا كذلك مسيحيين . والإحصائيات لها منطوق ومفهوم وظاهر وباطن ، ومن شأنها أن تصلح دليلا للمثبت مادام لاينفيها نافٍ يريد أن يثبت خلاف مايدعيه المثبت .

والعبرة في كل شيء ليست بالعدد وإنما هي بحقيقة الواقع في الشيء المعدود ؛ فإذا كانت المسيحية كثيرة الأفراد فإن المسيحيين قليلو المسيحية ، . وبعبارة أخرى فإن من يعتبرون في عداد المسيحيين سواء في أوربا أو في غيرها لاتسيطر المسيحية على أكثريتهم إلا بقدر ما تسيطر عليهم التقاليد والعوائد ، بحيث أصبحت المسيحية في كثير من الأقطار ظاهرة اجتماعية أكثر منها معتقدات فلسفية وتعاليم وأخلاقا

والناس طبقات ، وأظهر هذه الطبقات طبقة المالكين وأصحاب رؤوس الأموال وطبقة العاملين لهم وهم العمال والمأجورون

فالطبقة الأولى ، وهي طبقة رؤوس الأموال ، لا ترى في المسيحية إلا إطارا يحسن فيه إقامة المهرجانات الاجتماعية من زواج ودفن . وتتباهى في تلك المهرجانات ولا تتردد في الإنفاق عليها .. ثم إنها إلى عهد قريب كانت ترى في الدين أداة لتسكين غضب العامل والأجير والفلاح لما هم فيه من بؤس وشقاء ؛ وترغيبهم في حياة الآخرة بما فيها من نعيم يعوضهم مالم يدركوه من أنواع الخير والنعيم في هذه الحياة الدنيا . غير أن طبقة العملة استيقظت من سباتها وأدركت أن الدين شيء ، وماهي عليه من بؤس وشقاء شيء آخر . وأن الدين ، الذي هو إيمان وسلوة ورجاء ، لا ينبغي أن يكون ذريعة لأصحاب رؤوس الأموال يتوسلون بها إلى استغلال عمالهم الشاق المضني لجمع مال وتنمية ينفقون جزءا تافها منه على تشييد الكنائس وإقامة الصلوات ويتركونهم يعيشون هم وأولادهم في بؤرة الشقاء والمرض والبؤس

ولم تحصل هذه النتيجة في عقول العامل والفلاح والأجير بتعاليم الاشتراكية والشيوعية طيلة القرن التاسع عشر فحسب ، بل كان الفضل في ذلك لانتشار التعليم أولا ، وافتضاح الطبقات المالكة . وافتضاح الكنيسة الكاثوليكية الأخلاقية والمالية . بحيث أصبح العامل والقروي لايفرهما بهرجة الدعاية وجمال المظهر وحسن الهندام ، إذ يعلمون أن من يمثلون الدين لايعيشون دائما حسب تعاليمه وأن أصحاب رؤوس الأموال لا يتأثرون من الدين بشيء ، فساءت الظنون وتبع ذلك ماهو أكثر منه أي فرار أكثرية العملة من حظيرة الكنيسة . وأحسن برهان على ذلك فقرات نصوفها للقارىء نقلا عن مجلة « إكليزيه » (Ecclesia) وهي لسان حال الكنيسة الإسبانية بقلم أسقف بلنسية جاء فيها :

« يتهم العملة الإسبانيون استبدال الحكم في بلادهم ، ولكنهم يجهلون بأي شيء يستبدلونه ، والعملة لايخافون الكنيسة ، وإنما يخافون رجال الجيش ويعتبرون ما يتقاضونه من الأجور لايدفع عنهم البؤس وإنما هم مرغمون على تقاضيه من طبقة المترفين . والعملة من وجهة العلائق الجنسية مع نسائهم ، ليسوا من العفة في شيء : فالأعزب منهم لايريد الزواج ، والمتزوج منهم لايرى في زوجه إلا أداة المتعة الجنسية ويعمل على ألا يكون له من زوجه ولد . ويلاحظ أن حديث العملة فيما بينهم أكثر مايدور حول النساء والشؤون الجنسية لا السياسية أو الاجتماعية أو الاقتصادية . »

ويختم الأسقف كلامه قائلا : « لا يتورع العملة عن سرقة مستخدميهم كلما وجدوا لذلك سبيلا ، وذلك إما بالقيام بالعمل أقل مايمكن ، وأما باختلاس بعض الأدوات . وهم إذ يتصرفون هكذا كأنهم يقولون هذه بضاعتنا ردت إلينا ! وماذلك إلا لأنهم يجهلون وجود الله أو لأنهم ملحدون »

ذلك مايخص الشعب في أمة تعتبر أعرق الأمم في الكاثوليكية. ولا حاجة بنا للتعليق أو شرح إذ كلام الأسقف من حيث البيان

قد بلغ النهاية القصوى . وإذا كان الأمر كذلك فى مثل هذه الأمة فماذا يكون فى غيرها من الأمم التى لعبت فى عقول أفرادها التعاليم الماركسية والماسونية التى سيطرت على التعليم فى كثير من البلاد الأوربية وفرقت بينه وبين التربية الدينية . فحالة المسيحية فى فرنسا لا تقل تحرجا عنها فى غيرها . فقد نشرت جريدة رجمية Carrefour كارفور فى عددها الصادر فى ٣٠ ابريل الأخير مقالا بقلم أحد مساعديها الاختصاصيين فى المسائل الدينية يقول فيه : « يمكن أن نؤكد من غير خشية الوقوع فى الخطأ أن فرنسا فى مجموعهـــا تسير شيئا فشيئا فى طريق العدول عن الإيمان بالله .

وإذا كان جمهور أهل البوادى لازال يقدم أولاده لماء المعمودية ، ولا زال يتزوج ويقيم جنائز أمواته فى الكنائس ، مظهرا بذلك تشبثا ظاهرا بالكاثوليكية ؛ فإن مجموع سكان المدن إلا من شذ — وحتى أفراد الطبقة الوسطى منهم وقسط من طبقة البرجوازية العليا — كل هؤلاء أصبحوا يعتبرون الكاثوليكية كتحفة أثرية رعقيدة عتيقة دخلت فى حكم التاريخ لاحاجة بالناس لإضاعة الوقت فى مناقشاتها والجدال فيها . والخاصة فى كل وسط من الأوساط الاجتماعية هى التى عدلت عن الإيمان بالله ، وهى التى قطعت علائقها بالكنيسة الرومانية متوجهة نحو العلم والرقى العلمى ، ونحو جميع الأوثان المزيفة التى نصبها العالم الحديث ، وبذلك يحاولون تحقيق أهدافهم الإنسانية على أكمل وجوهها »

وبعد أن أطال الكاتب وأطنب فى تصوير هذه الحالة التى تعتبر من صفحات الكاثوليكية السوداء فى العصر الحاضر ، زاد قائلا :

« أخذت فرنسا تبتعد عن المسيحية منذ القرن الثامن عشر الميلادى ، وقد أصبح إغراقها فى الإلحاد فى الوقت الحاضر فى أقصى درجة ممكنة ، ويشمل ذلك عددا كبيرا من الفرنسيين ، وخصوصا أفاضلهم ممن ينعتون بكونهم محافظين وممن عرفوا بانتمائهم للنظريات التقدمية

نعم إن الكاتب يقول بعد ذلك إن هناك رد فعل لا نزاع فى وجوده من طرف الكاثوليكيين وخصوصا من الشباب لاسترداد مافات الكنيسة من تأثير على النفوس ، ونحن كذلك لا نناقش فى هذا لأن الكاتب متفائل كل التفاؤل ونرجو أن يكون موفقا فى تفاؤله وأن تتوج تلك الجهود بالنجاح أو ببعض النجاح

ويختم مقاله المتشائم فى بدايته المتفائل فى نهايته بقوله : إن كنيسة فرنسا تتمتع بصحة جيدة !

ونحن لا يسعنا إلا أن نبارك هذه الصيحة ، لولا أننا فوجئنا بكتاب كتبه الراهب منتوكلار عنوانه : الحوادث والإيمان (١) ، صادرته الكنيسة الكاثوليكية بعد ظهوره وحرمت قراءته على المسيحيين نظرا للأفكار التى يتضمنها والتى تعتبرها أفكارا ثورية ، وهذا الراهب من أولئك الرهبان الأذكياء الذين عرفوا أن من بواعث انتشار الإلحاد والكفر والابتعاد عن تعاليم المسيحية ، كون من سبقوهم فيها — وخصوصاً منذ فجر النهضة الصناعية فى أوائل القرن المنصرم — لم يكونوا فى صفوف العملة والفلاحين ، بل كانوا فى جانب الرأسماليين يباركون فى تصرفاتهم فى استغلال المال والعملة ، وكانت الكنيسة الكاثوليكية كلما قام من بينها ومن بين رجال الفكر والمنتمين إليها من ينتدد بأعمال الرأسماليين ويدافع عن العملة مثل الأب لكوردير Lacordaire والأب لامنى Lomennais وغيرهما تقاومه وتحرم النظر فى كتبه لأنها تشتمل على أفكار وآراء تعتقدها مخالفة لتعاليمها وقد قام فى فرنسا بعض صغار الرهبان ، وأغلبهم من الشعب ، وأخذوا على أنفسهم التقرب من العامل والفلاح لدرس حالته أولا وإعانته فى شدته وضيق عيشه والدعوة إلى رحمته ليخرج بذلك مما هو فيه من بؤس وشقاء . وإذا خرج من ذلك ابتعد — فى نظرهم — كل البعد عن حظيرة الشيوعية . ولقبهم مناوئهم — بالآباء الحمر — لكونهم يعيشون فى أوساط العمال ويعيشون عيشتهم ، ومنهم من يخدم فى المعامل . وإذ كان عددهم الآن قليلا جدا لكون الكنيسة لا تنظر إليهم بعين الرضا — فإن أثرهم ملموس فى أوساط العمال الذين يحسون منهم بصدق وإخلاص فى المأمورية الإنسانية التى يهدفون إليها

والعجب كل العجب أن بعض هؤلاء « الآباء الحمر » قد توصلوا فى درسهم حالة العمال إلى نتيجة هى نفسها النتيجة التى

(١) Les Evénements et la foi R P Montuclard

توصل إليها الباحثون قبلهم من أصحاب النظريات الاقتصادية في كل زمان ومكان ، وهي أن مسألة العمال والفلاحين — أو ما نسميه العدالة الاجتماعية — تحتاج إلى قلب النظام في الاستهلاك والاستغلال وإعادة النظر في توزيع الأراضي الخ — وهم بوصولهم لهذه النتيجة كأنما كانوا على موعد عندها مع مفكري الماركسية - أحبوا ذلك أم كرهوه ! ولذلك فإنهم يسخطون الكنيسة والرأسمالية على السواء غير أنهم لا يخشون في الحق لومة لائم وإن كانو منقادين لأوامر الكنيسة

ولكي تعرف رأي أحد هؤلاء « الرهبان الحمر » نأتي اليك بفقرات من الكتاب المذكور، يقول صاحبه ما نصه :

« لقد قضيت أياما من فصل الربيع الأخير مع جماعة من المبشرين في بادية فرنسا في أواسطها . وقد انسلخ سكان هذه الناحية تماما عن المسيحية بحيث لم يبق عندهم من مظاهر المسيحية إلا ما علق بتقاليدهم الشعبية وما هو ممتزج بخرافاتهم وأوهامهم التي تسود فيها معتقدات هي ألصق بالسحر من غيره . وكان حاضرا معي في هذا الجمع عدد من الرهبان والخوريين يبلغ نحو العشرين ، فخصصنا يوما لدرس هذه الحالة وأمامنا سؤال واحد وهو : ما العمل لرد أهل هذه الناحية إلى حظيرة المسيحية ؟ فكان جواب الجميع أنه لا أمل لنا في ذلك قبل قلب نظام توزيع الأراضي واستغلالها ؛ وهو نظام إنساني يعيش فيه الفلاح وهو ينظر للحياة نظرات لا آفاق فيها »

ورغما عن كون هذه النظريات التي تشبع بها غير ما واحد من رجال الكنيسة ، وإن لم يتوصلوا كلهم لنفس النتيجة أي قلب النظام الحالي في الامتلاك والاستهلاك ، فإن الرجعيين من الفرنسيين وخصوصا أصحاب الحزب الملكي المتمين لأحد زعمائه وهو موراس — يقولون في حكمهم على هذه النظريات : إن هذا دين جديد ، مخالف لما كان عليه دين آبائنا لكونه لا يقر الحياة التقليدية التي عاش عليها الفلاح منذ قرون وتكونت منذ قرون ، والذي يظهر من أمر هؤلاء الحواريين الصغار أن نظرياتهم لا تستند على كاثوليكية ولا على سياسة اجتماعية رشيدة ، وإنما مبناها أقوال الماركسية !

ولا غرابة في هذا الحكم مادام مأتاه من قوم عرفوا بضيق الفكر وشذوذه في كل شيء . والعجب كل العجب أن متزعم الحركة الملكية بفرنسا يقول بخلاف ما يدعيه من يزعمون الانتساب إليه ، وقد عرف عن لوكنت دوباري أن له نظريات اجتماعية قد يرتضيها كثير من أحزاب العمال وهي مغايرة لكثير من نظريات أتباعه

ولكن الذي لا نفهمه هو أن كثيرا من المسيحيين المترددين أو المتحجرين الجامدين أمام القضايا الاجتماعية سواء في فرنسا أو في إسبانيا أو في إيطاليا — لم يعتبروا بما وقع لروسيا التي ترددت كثيرا وجمدت ما شاء لها التعصب والجمود أن تفعل طوال القرن التاسع عشر ، وعلى رأسها أرستقراطية جبارة كانت تتصرف في الأراضي وما عليها من رقاب تصرف السادات والإقطاعيين ، ولم تحاول حلا للمشاكل الاجتماعية بل لم يثبت أن قادتها أمارو أذنا لسماع شكوى العامل والفلاح مما كانوا فيه من أنواع البؤس والشقاء . فنفس جواب الرجعيين في أوربا الغربية الآن كان يجيب به سادات روسيا العامل والفلاح ومن كان يتزعم حركتهما الإصلاحية مستندين في ذلك على سوء فهم الدين ، وعلى تخدير الأعصاب الذي كان يقوم به رجاله المأجورون . ولكن ماذا كانت النتيجة سنة ١٩١٧ ؟

إنها كانت الشيوعية التي اكتسحت نصف أوربا وبعضا من آسيا الآن ، والتي ستضطر الإنسانية لصرف جميع ما تملكه في مقاومتها مع عدم تحقق الغلبة عليها ، لأن القضاء على الخطر الروسي ليس هو القضاء على الخطر الشيوعي !

كانت الشيوعية نتيجة لتحجر المسيحية والمسيحيين ، وكانت روسيا هي أكبر الدول المسيحية مساحة وأكثرها عددا ولكن النتيجة هي ما نعلم

ولذلك لا تغتر بقول من يقول : إن المسيحية في ازدهار ، بناء على الإحصائيات

على أن ما يقال في شأن التأثر بالدين وتعاليمه والتهذب بأخلاقه ومبادئه في حق المسيحية والمسيحيين ، قد يقال مع مزيد الأسف والحسرة في حق الاسلام والمسلمين مع ما لابد منه من التفرقة التي تقتضيها الاعتبارات التاريخية والجغرافية والاجتماعية

عبد الكبير الفاسي